الفصل السابع

الشرق في عيون الغرب
والغرب في عيون الشرق

" ثنائية الافتراق والاقتراب"

الفصل السابع

الشرق في عيون الغرب
والغرب في عيون الشرق
" ثنائية الافتراق والاقتراب"

حظيت ثنائية الشرق/الغرب بمئات الأبحاث والدراسات في المنظور السياسي أو التاريخي أو الدّيني أو الثقافي. وما ذلك إلاّ تأكيداً لأهمية العلاقة التاريخية بينهما. وبالمعنى المتداول المألوف لهذين المصطلحين فإنهما لا يعنيان شيئاً من الناحية الجغرافية، فلا الوطن العربي يقع شرق أوروبا، ولا أوربا تقع غرب الوطن العربي. وسنحاول مقاربة هذين

المصطلحين من خلال مفهوم كل منهما وتصوراته تجاه الآخر.

مصطلح الشَّرق

الشرق اسم أطلقه الأوروبيون الكاثوليك على البلاد التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، ومن ثم أطلقه الأوروبيون على بلاد الإسلام فيما بعد " وكان مدلول المصطلح يضيق، فلا يشمل إلاّ سورية ومصر وبلاد الرافدين، ويتسع ليشمل بالإضافة إلى ما سبق شبه الجزيرة العربية، وفارس وتركيا، ثم امتد في مراحل لاحقة، ليشمل، الهند والصين واليابان، وما إليها من بلدان آسيا"(1).

ويذهب " برنارد لويس " إلى أنّ المقصود بالشرق غالباً " الشرق الأصلي " التقليدي " القديم، الذي كان الجار

والمنافس لأوروبا اليونانية والرومانية، ثم لأوروبا المسيحية، منذ أن قامت جيوش أحد كبار الأكاسرة الفرس باحتلال اليونان، إلى أيام انسحاب مؤخرة جيوش العثمانيين"(2).

مصطلح الغرب

الغرب هو الاسم المقابل للغرب. يقول " برنارد لويس ":" لقد اعتدنا نحن الأوروبيون منذ مدة أن نطلق على مجموعة البلاد التي ننتمي إليها، اسم الغرب، ولم يعد هذا التعبير يعني وضعاً جغرافياً خالصاً، بقدر ما يعني ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً"(3). ويضيف: "وفي الشرق الأوسط لم يستعمل تعبير _ الغرب

ـ بمعنى الكيان السياسي والثقافي، إلاّ منذ مدة قريبة، وربما يكون قد بدأ استعماله في الوقت الذي راج فيه تعبير الشرق الأوسط"(4).

الشرق في عيون الأوروبيين

عندما وضع " دانتي " النبي محمّد (صلى الله عليه وسلّم) والخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة ـ في الجحيم الداتنتي ـ(5)، ووضع ابن رشد وابن سينا في " ميناء جهنمه " فهو لم يكن يعبّر عن موقفٍ شخصي فقط بقدر ما كان يعبر عن تصوّر ذهني غزلي سلبي ضد الإسلام والمسلمين. ففي العصر الوسيط تحديداً تشكلت في الوعي الجمعي المسيحي القوالب النمّطية السّلبية الشوهة

عن الإسلام بارتباط مباشر مع موقف الكنيسة السلبي من الإسلام. ولم يكن ذلك التصوّر السّلبي النّمطي المشوه عن الإسلام نتيجة ضعف معرفة الأوروبيين، ولكنها في غالب الأحيان نتيجة تشويه متعمد وترجمة غير نزيهة للنصوص الإسلامية. وقد تطورت بعد ذلك النظرة الأوروبية إلى الإسلام والشرق، " فأصبحت تعني حضارة مغايرة، بغض النظر عن القيمة التي تُعطى لها، وصارت النظرة العامة الشَّعبية، تتراوح بين الشرق المدهش، شرق ألف ليلة وليلة، وبين الشرق المتوحش، البربري، الفظ، العنيف، ولم تتغير النظرة الأوروبية إلى الإسلام باعتباره ديناً متعصباً، عدوانياً، حتى جاء القرن الثامن عشر عصر التنوير الأوروبي،

حيث حاول الأوروبيون _ النخبة منهم _ الاقتناع بفكرة تساوي الطاقات الكامنة في الثقافات المختلفة، لتحقيق ما هو إنساني "(6). ورغم أنّ القرن الثامن عشر يمثل بداية عصر التنوير والنظرة الموضوعية _ نسبياً _ إلى الإسلام والمسلمين، إلاّ أنه وجد من بين عمالقة الفكر والأدب الأوروبي من بقي أميناً للنظرة " القرو وسطية " السَّلبية " للإسلام والمسلمين. ومن هؤلاء " فولتير " الذي أطلق من الأحكام العدائية ضد الإسلام، وخاصة ما جاء منها في كتابه " محمّد و التعصب " و " فولني " الذي ركّز على فكرة محورية فحواها أنَّ الإسلام هو دين العنف، وقد أثَّرت هذه النظرة السلبية المشوّهة لحقيقة الإسلام السمحاء في وسائل الإعلام

الغربية إلى يومنا هذا. وكذلك الحال مع " شاتوبريان " الذي كرّر أفكار القرون الوسطى السلبية والمشّوهة تجاه العرب والمسلمين.

وإزاء هذه النظرة السلبية ضد الإسلام يتخذ العديد من المستشرقين الكتاب والأدباء الأوروبيين مواقف منصفة من الإسلام والمسلمين، ولكننا سنتوقف عند ظاهرة الاستشراق محاولين استجلاء مواقف المستشرقون من العرب والمسلمين وحضارتهم، وسنجد أن أكثرهم يرون أن " ما في التاريخ العربي الإسلامي من أمجاد، ونقاط مضيئة لا يعود للإسلام إي فضل فيه، فإذا كانت امبراطورية الخلفاء عرفت عهوداً سنية، فإنما الفضل لرفد اليونان والفرس.... كان كل شيء يفسر بتأثير

خارجي، وكان الوضع الحالي، برهاناً مبيناً، على أنّ الإسلام متروكاً لنفسه لا يمكن أن ينجم عنه إلاّ مجتمعات متخلفة منغلقة.

وليس إلاّ أن نذكر كمثال بالآراء العجيبة، وبالافتراءات الصادرة بحق الإسلام عن ارنست رينان الذي أسهم مع ذلك في تعريف مكانة الإسلام في تاريخ الأفكار"(7).

وإلى جانب هؤلاء المستشرقين، الذين اتصفت أحكامهم بالشمولية والنظرة المسبقة وجد مستشرقون غربيون اتخذوا من الشرق موضوعاً لأبحاثهم فقرأوا الإسلام قراءة موضوعية منصفة.

نظرات معاصرة لانطباعات الغربيين عن العرب المسلمين

في كتابه القيّم " الإسلام والغرب في كتابات الغربيين " لخص الدكتور زغلول النجار آراء مؤلفي كتاب " شعور بالحصار " جراهام فوللر وإيان ليسر وانطباعاتهم عن الإسلام والمسلمين بما يلي:

" أشار الكاتبان إلى المظالم البشعة التي تعرّض لها المسلمون إبان حرب البوسنة والهرسك، وتقاعس الغرب عن حل المشكلة قد أديا إلى صحوة إسلامية كبيرة في منطقة البلقان أقلقت الأوروبيين.

وأشار الكاتبان إلى أن النمو المتصاعد للعامل الإسلامي في منطقة البلقان، ومع التقائه بالحركات الإسلامية السياسية عبر كل من الشمال الإفريقي والمشرق العربي، تتعاظم إمكانية الإسلام كقوة وحدوية في منطقة البحر المتوسط. وذكر الكاتبان أنه

على مدى أكثر من ألف عام ظل الخطر الإسلامي يمثل المشكلة الاستراتيجية الأساسية التي تواجه الأوروبيين.
وذكر المؤلفان أن التفاعلات بين الدول الأوربية المستعمرة وبين المستعمرات التي احتلتها بالقوة منذ القرن السادس عشر وحتى ما بعد عام 1945 كانت في الأساس تفاعلات بين الغرب والإسلام.
ويتخوف الغرب من سلسلة الأحداث المتلاحقة في العالمين العربي والإسلامي في الوقت الراهن. وخاصة من بروز القوى الراديكالية والأصولية الإسلامية" (8).

معضلات إسلامية تؤرق الغرب

يواجه الغرب عدداً من التحديات لسياساته الخارجية والأمنية، ومن هذه التحديات احتمال

بروز دور هام للإسلام في الشؤون الدولية، فضلاً عن معضلات أخرى يجملها الباحثان " جراهام فوللر " و " إيان ليسر " في كتابهما " شعور بالحصار " كما يلي:

الإسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان.

_ هجرة المسلمين إلى الغرب وصعوبة تأقلمهم الاجتماعي مع الغربيين.

_ القومية والصراع العرقي بين المسلمين وغير المسلمين مثل أحداث البلقان وآسيا الوسطى.

_ علاقات الشمال والجنوب: الأغنياء والفقراء.

_ عدم استقرار العالم الإسلامي يشكل خطراً على النظام العالمي.

_ الحدّ من التسلح.

ـ انتشار الأسلحة والتوازن العسكري بين الشمال والجنوب.

ـ الوصول إلى الموارد النفطية.

ـ الإرهاب الدولي"(9).

هذه المضلات يضعها الغربيون كعقبات في طريق الحوار، ونحن نتحفظ عليها، ولنا فيها وجهات نظر، هي من أولى المهام المُلقاة على عاتق المحاور العربي والمسلم عندما يلتقي محاوره الغربي سواء في مؤتمرات الحوار وندواته أو على مقاعد الدراسة في الجامعات الغربية أو على صفحات التواصل الاجتماعي وشبكة الانترنيت.

....

الغرب في عيون العرب المسلمين:

رغم أنّ الغرب حاول على الدوام أن يقدم نفسه كقوة للحضارة والحداثة والديمقراطية، والتطور إلاّ أن العرب بعد تجاوزهم لمرحلة الانبهار بمنجزاته، أخذوا يرونه مكشوفاً على غطرسته واستبداده، وبالتالي كان رفض الصُّورة النمّطية المشوهة التي يحملها عنهم هي السمة الغالبة في نظرتهم إليه.

إنّ الشرق العربي كان في تكوينه لمفهوم الغرب أكثر موضوعية وانصافاً من كتابات بعض الرحالة الغربيين، فهو يريد قوة الغرب، علمه، ويرفض استبداده.

وقد أشار الباحث " محمد راتب الحلاق " في كتابه " نحن والآخر " إلى ثلاثة مواقف اتخذها المفكرون العرب فيما سمي بعصر النّهضة من العلاقة مع

الغرب، موقف الإعجاب، وموقف التماهي، وموقف الممانعة والمقاومة الإيجابية.

1_ موقف الإعجاب

وهذا الموقف شائع عند أصحاب المواقف الثلاثة، كل ما في الأمر " أنّ هذا الإعجاب وصل عند البعض إلى درجة تعطيل أجهزة المقاومة وفعاليات الوعي، في حين استنفر عند البعض الآخر الطاقات الإيجابية الكامنة لدى الأمة. وسبب الإعجاب _ في كل الحالات _ يعود إلى الانتقائية التي مارسها المفكرون " الشرقيون " دون إغفال للأسباب الموضوعية وما أكثرها وأكثر ما أثار الإعجاب، هذه القوة الجبارة التي امتلكها الغرب من بعد ضعف. وقد حاولوا جميعاً البحث عن سر هذه القوة كلٌّ _ بطريقته الخاصة _ وإن أرجعوها في

نهاية الأمر إلى أسباب ومنطلقات يفتقدها الشرق"(10).

2_ موقف التماهي بالغرب

وهو الموقف الذي يدعو صراحة إلى الالتحاق بالحضارة الغربية بصفتها حضارة كونية، فالذين يميزون بين الشرق والغرب يغضونَ الطرفَ عن حقيقة أنّ الحضارة الحديثة ليست أوروبية خالصة_ على الرغم من الظاهر والادعاء _ بقدر ماهي إنسانية وشاملة في مداها وانتشارها، بعيوبها ومحاسنها، فالحضارة الحديثة هي خلاصة تقدم وإنجازات الحضارات السابقة"(11).

ومن دعاة هذا التيار " سلامة موسى " الذي يتبنّى هذا الاتجاه ويعتبر خطابه تغريبياً بامتياز، يقول مؤكداً اتجاهه هذا " إذا كانت الشَّمس تشرق من الشرق، فإنَّ النور يأتينا من الغرب" (12).

وبمختصر القول يدعو أنصار هذا التيار للالتحاق بركب المشروع الحضاري الغزلي دون قيد أو شرط. وإذا كان التغريب قد قام به الغربيون أولاً، فإنَّ المتغربون العرب قد قاموا به ثانياً.

3_ الموقف المقاوم:

وهو الموقف الذي يأبى الانكماش على الذات " لأن إنكار الثقافة الغربية لا يستطيع أن يشكل في حد ذاته ثقافة، ولأن الرقص المسعور حول الذات المتفردة، لن يجعلها تنبعث في رمادها"(13).

ويرى دعاة هذا الموقف خير أوربا كما يرون شرها، ويدركون أن أوربا كما نفعتنا كثيراً خدعتنا كثيراً على حد تعبير عبد الحميد الزهراوي: " لا ينفعنا الجمود ومعاداة كل أشياء الأجنبي باسم الوطن، فإنَّ الوطن للبشر واحد: هو دار الأعمال والتكاليف التي تطلب من الكل، وتوزع على الكل

ويتبادلها الكل. وليس حب الوطن هو الكر على عادات الأسلاف .... هذا ولا ينفعنا أيضاً تقليد كل أشياء الأجانب باسم التمدن، فإنَّه لا عصمة لأمة من الخطأ، ولا يستحق أحد أن يقلد تقليداً محضاً، بل علينا أن نستعمل التفكر، ونستهدي التجارب، ونساعد في تأييد أنفع الروابط للتكامل البشري، يومئذٍ ستنقسم الأرض الطبيعية غير هذا الانقسام الصناعي، ويصافح المشرقي المغربي، والشمالي الجنوبي، على أنهم إخوان، متعاونون في العلوم، متقاسمون للأعمال عام، وتعاون عام، ونظام، ووطن عام، وسلام عام في ظل قوة عامة" (14).

إنّ الفكر المقاوم الذي يرى خير أوربا ويرى شرها، فيأخذ من خيرها، ويتجنَّب شرها ما استطاع، هو أقرب المواقف إلى المنطق.

الشرق العربي يُقلّد الغرب

مثلما رأينا الأوروبيين القدامى تحضروا على أيادي المسلمون في كافة مجالات الحياة فإنَّ الشرق العربي بعد أفول شمس حضارته الزاهرة أخذ " يقلّد الغرب ومازال يقلّده" كما يقول الباحث حسن حسني عبد الوهاب (15).

بعد أن أصبح الشرق العربي، ومن منذ زمن طويل يدرك ما يعوزه ويرغب بعد أن أصبح متأثراً بالنظم المعرفية والتقنية والثقافية الغربية، حيث أثَّر في النظام المعرفي والاجتماعي الذي يساهم في بلورة الفكر ... وهكذا واقع الشرق العربي في محاولته اللحاق بركب الحضارة الغربية في شراك التقليد الذي يصل لدرجة التقليد الأعمى، وهذا مصيبة كبرى كما يراها المفكر عبد الوهاب بوحديبة في كتابه " لا فهم "(16).

معضلات يفرضها الغرب على العرب والمسلمين:

يرى الكاتبان " جراهام فوللر "، و " إيان ليسر " (17) أنَّ العالم الإسلامي يشعر بأنّه يعيش تحت حصار فرضه عليه الغرب في العديد من المجالات الحيوية التي منها: المجالات السياسية، والعسكرية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية.

ومن أهم المعضلات المعاصرة التي يفرضها الغرب على العالم الإسلامي:

1_ الضغوط السياسية للغرب على المسلمين، ومنها ما كان بسبب تحيزهم ودعمهم للاحتلال الإسرائيلي على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، ولعلَّ ليس آخرها اعتراف الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارة بلاده إليها من تل أبيب.

2_ الخلافات الاقتصادية بين العالمين العربي والإسلامي، وما كانت منها بسبب عدم المساواة والعدل منها ما يتعلق باستغلال موارد الطاقة العربية، ومنها ما يتعلق بشروط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي المجحفة بمصالح العربية والإسلامية ومحاولات الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية العمل مجدداً على عودة أشكال الاستعمار بصورة جديدة.

3_ مشكلة المجتمعات المحلية الإسلامية في بلاد الغرب، فيما يتعلق بالاندماج ومصاعبه وما ينجم عنه من مشاكل تتعلق بحقوق المسلمين الموجودين هنالك واحترام عاداتهم وشعائرهم الدينية.

وهكذا تظل ثنائية الشرق والغرب/ العرب والغرب موضوعاً هاماً للعديد من الأبحاث الجادة

التي ترتكز عليها وتنطلق منها كل قضايا الحوار البنّاء بي الطرفين.

****

الهوامش والمراجع:

1_ محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، اتحاد الكاتب العرب، دمشق 1997، ص 11.

2_ برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط، ترجمة نبيل صبحي، ص 2.

3_ المرجع السابق نفسه، ص34.

4_ نفسه، ص 36.

5. دانتي، الكوميديا الإلهية، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة 1955، ص 371.

6. لويس غارديه، أهل الإسلام ، ترجمة صلاح الدين برمدا، وزارة الثقافة، دمشق 1981، ط1 ، ص 327.

7_ المرجع السابق نفس، ص 338.

8_ الدكتور زغلول النجار، الإسلام والغرب في كتابات الغربيين، شركة نهضة مصر، ط4، سبتمبر 2005، ص 41، 42، 46، 48، باختصار.

9. المرجع السابق نفسه، ص 113.

10_ محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، مرجع سابق ،ص 36.

11_ الخطيب، محمد كامل: الإصلاح والنهضة، وزارة الثقافة، دمشق 1992م، ص 16.

12_ سلامة موسى، الأدب للشعب، الأنجلو للطباعة، القاهرة 1956، ص12.

13_ عبد الله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، بيروت، ص57.

14–عبد الحميد الزهراوي، نظام الحب والبغض، مجلة المنار، المجلد السادس، ص 775.

15_ محمد العابد مزالي، شؤون الثقافة ومشاكل التعليم، مجلة المباحث، العدد السابع، 7 أكتوبر 1947، ص 7.

16_ عبد الوهاب بوحديبة، لا فهم ، تونس 1975، ص13.

17–الدكتور زغلول النجار، مرجع سابق، ص122.

****